

المحاضرة الثالثة / البلاغة القرآنية الجذور والنشأة والمعالم

أ.د رحيم كريم الشرفي

٢٠٢٠/١٢/٢١ م الإثنين

في هذه المحاضرة سنتحدث عن الجذور الأولى للبلاغة القرآنية ونشأتها وأهم المعالم التي تترأى لنا في ظلّ الوقوف على مسارات التفكير البلاغيّ عند العرب .

المبحث الأول : الجذور الأولى للبلاغة القرآنية

لا يخفى على الدارس أنّ للبلاغة العربية تاريخاً حافلاً بالنظرات البلاغية الثاقبة واللمسات النقدية المهمة التي تدلّ على وعي متميز بتذوق الكلام وتبيان جماليته والوقوف على أسراره ، وقد ندت روايات وأحاديث كثيرة ومتنوعة تؤكد هذا التصوّر وتبرهن على بواكير التفكير البلاغيّ عند العرب .

العرب أمة بيان فاللسان العربيّ وعاء حضارة وحوار معرفيّ فكان الأعراب يتنفسون البلاغة ويكرعون الفصاحة فقد حفلت مجالسهم ومنتدياتهم بالحوارات الأدبية والمطارحات الشعرية والخطابية والنقدية ، فكان اللسان أمضى من السيف وأحدّ فهذا شاعرهم طرفة بن العبد يصف حدّة لسانه بقوله (١):

لساني وسيفي صارمان كلاهما وبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي

فاليئة الجاهلية تحتمّ عليهم أن يمارسوا السلطة البيانية فضلاً عن السلطة العسكرية المتمثلة بالحروب والغزوات والإغارات ، فهما لا ينفكان إذ تتطلب السلطة العسكرية سلطة بيانية لتحريك الهمم وشحذها وتقوية الإرادة وتعجيلها .

من هنا نشأ العرب على تذوق الأسلوب ونقده والفتنة بجيده وورديته ونشأ عن هذا الاهتمام أن ظهرت آراء نقدية كانت البوادر الأولى للنقد الأدبيّ عند العرب ، وهذا النقد هو أساس علم البلاغة العربية ، وقد حفظت لنا الكتب الأدبية أخباراً عن تلكم الآراء النقدية وإبداعات الشعراء والأدباء ، فتذكر الأخبار أنّ النابغة الذبيانيّ كانت تضرب له قبة آدم في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فيصدر عليها أحكامه (٢).

المطلب الأول : الاستدلال على أنّ العرب أمة بيان

يمكن للباحث أن يستدلّ على أنّ العرب أمة بيان وأصحاب سلطة بيانية واضحة المعالم في ظلّ محورين ، هما :

يتجلّى هذا الأمر في كون المشهد الأدبيّ إن شعراً وإن خطابة وإن لغة لم يصل إلى ماوصل إليه من القوة في ذلك العصر وبلغت ذروتها من أن تكون ثمة أصول تعارف عليها الشعراء والخطباء والادباء وساروا عليها ، فالثقافة الأدبيّة والسليقة الصافية والذوق السليم كلّها أمارات وإشارات تدلّ عقلاً ومنطقاً على وجود حركة أدبيّة وسيعة ومنظومة بيانيّة وافرة .(٣)

وهو ما تلمسه من أخبار ومرويّات ونصوص وردت عن شعرائهم وخطبائهم وأدبائهم تدلّ دلالة واضحة المعالم عميقة المضمون على أنّ العرب أمة بيان ، وأصحاب سلطة بيانيّة راسخة ، إذ إنّ البذور قد نمت وتجمّعت بعد أن ضربت بجذورها البعيدة في أعماق الحقل البلاغيّ الذي أثمر شجرة البلاغة بثمرها الشهيّ وجناها الرطيب ، إن هاته الملاحظات المتنوّعة والتنّف المتناثرة والأحكام العابرة تجمّعت وتألّفت ؛ لتكوّن الروافد لعلوم البلاغة ، وقد أفادنا الجاحظ (ت ٢٢٥هـ) في سرد مجموعة كبيرة من النقول تدلّ على اهتمام العرب بالبيان ومعرفتهم للبلاغة وسنحاول أن ننقي نصوصاً موجزة لبيان ذلك فقد أشار إلى معرفة الجاهليين بطبقات الكلام والوقوف على عيوب الكلام فضلاً عن ذكر أوصاف الشعراء التي تدلّ على رؤية نقدية قديمة لبياناتهم ونتائجهم قال : ((وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك كذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً ؛ إلا أن يكون المتكلم بدويّاً ... وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس في طبقات فمن الكلام الجزل السخيف والمليح والحسن والقبيح والسّميج والخفيف والثقيل وكلّه عربيّ وبكلّ قد تكلموا وبكلّ قد تمادحوا وتعابوا ، فإن زعم زاعم أنّه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت ، فلمّ ذكروا العيّى والبكيّ والحصر والمفحم والخطلّ والمسهب والمتشديق والمتفهيق والمهماز والرثار والمكثار والمهماز ؟ ولمّ ذكروا الهجر والهذر والهديان والتخليط ؟ وقالوا : رجل تلقّاعة وتلهاعة وفلان يتلّيع في خطبته ، وقالوا : فلان يُخطيء في جوابه ويحيل في كلامه ، ويناقض في خبره . ولولا هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمّي ذلك البعض البعض الآخر بهذه الأسماء))(٤).

فهذا النصّ على طوله يؤكّد وثاقه مانقله الرواة وما حفظته صدورهم من ملاحظات نقدية دقيقة وأفكار بلاغية ذكية تشكّل مع غيرها الجذور النقلية الأولى للبلاغة العربيّة عامّة والبلاغة القرآنية خاصّة .

ونلاحظ في نصّ الجاحظ وعياً حاضراً وتصوّراً معجّياً في معاينة مقامات الأحوال ومراعاة إنتاج الخطاب طباقاً لمقتضى الحال الذي ستقوم عليه أسس البلاغة وأصولها .

ويلتفت الجاحظ أيضاً إلى الأوصاف التي أطلقها الشعراء على كلامهم من نحو : برود العصب ، الحلل ، المعاطف ، الديباج ، الوشي ، النسج ، الوشي وغيرها ، ووصفوا شعراءهم بأوصاف تنسجم مع نتائجهم وأضفوا عليهم ألقاباً ونعوتاً كالمهلل والمرقش والمنخلّ والأفوه والمتلمس والنابغة والمثقب وغيرها التي تدلّ على المعاينة النقدية الباصرة .

وينبصر أيضاً بمجموعة من الشعراء أطلق عليهم شعراء الحوليات ؛ لأنهم كانوا لا يذيعون قصائدهم وينشرونها على الملأ إلا بعد عام رغبة في تدقيقها وتنقيحها وتشذيبها من جهة واحتراراً من وجود الخلل

والعوار فيها فتكون عرضة للنقد والتهافت والسقوط ، وقد اشتهر زهير بن أبي سلمى بالحوليات وتبعه ابنه كعب والشاعر الحطيئة وأشباههم ، قال الأصمعيّ (ت ٢١٤هـ) : ((زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبید الشعّر ؛ لأنّهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين)) (٥).

وظهرت في الدرس النقديّ مجموعة من القصائد تدلّ على هذا الوعي النقديّ الباصر والهمّ البلاغيّ المعجب من نحو : الحوليات والمفضّليات والمذهّبات والمقلّدات والمعلّقات والمنقّحات والمحكمات وغيرها : فيصير قائلها ((فحلاً خنديداً وشاعراً مفلحاً)) (٦).

ولامعدى عن ذلك أن وصف القرآن الكريم العرب بأنّهم أمة بيان قال تعالى : ((الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان)) (الرحمن ١/٤) ، وأشار الخطاب القرآنيّ إلى تأثير البيان القرآنيّ في نفوسهم وأسرهم لقلوبهم مع حسن بيانهم وبراعة أداءهم قال تعالى : ((ومن النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدّنيا وهو الدّ الخصام)) (البقرة / ٢٠٤).

وبعد هذا المتقدّم وهو قليل من كثير تلمّسنا مجموعة من الرؤى النقديّة والأنظار البلاغيّة التي نقلت إلينا عن العرب بوصفهم أمة بيان ، وأنّهم أصحاب سلطة بيانيّة عالية .

القرآن الكريم سلطة بيانية معجزة

في هذا الجوّ البيانيّ الساحر والبيئة البلاغيّة الراقية نزل البيان الإلهيّ المعجز كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) الذي يمثّل سلطة بيانيّة إلهيّة معجزة ومتحدّية السلطة البيانية الجاهليّة السائدة فشرّبت أعناق أرباب البيان وأساطين البلاغة لما رأوا من بيان معجز وخطاب معجز ونظم باهر يهدّد سلطتهم البيانيّة ويزعزع منظومتهم البلاغيّة فقد ((فجّر الطّاقات المستكنة في قوى الإدراك البشريّ حين سحر قرآنه العرب منذ اللّحظة الأولى بنمطه الرّاقى وبأسلوبه الفريد وبيانه المعجز وأثار جوّاً من الحركة واليقظة والدراسة والانتباه ، لقد نزل القرآن ليكون كتاب الأزمان كلّها ، لا ليكون قرآن زمن واحد فمعانيه الصّادقة لاترقي المدارك إلى آفاقها ، وأغراضه أسمى من أن تحيط الأفهام بجلالها ، وصياغاته والنسق العجيب الذي جيئت بها عليه قد سبقت في مستوى من ينبع الجمال من خلال حروفها وكلماتها ويشع الحر من داخل تراكيبها إشعاعاً قوياً ، إن نسقه المتساقق وإن أدائه القويّ المميّز ، إن فواصاه الدقيقة المتناسقة وإن مقاطعه المتوازنة المستوية وإن إيقاعه العجيب الذي يُسبي ويأسر وينفذ إلى العقل والوجدان معاً لا يصدّه عنهما حجاب ، إنّ هذه كلّها وأشياء أخرى غيرها قد استحذت على عقول من أصغوا إليه منصتين ومنّ استمعوا إليه منتبهين ، فأسلموا له قيادهم طائعين أو مكريهين ، واستسلموا لسحره كافرين أو مؤمنين)) (٧).

وأول ما يطالعنا من هاته النقادات البيانيّة والملاحظات البلاغية للخطاب القرآنيّ المعجز من لدن أصحاب البيان الجاهليّ وأدباء قريش البلغاء قول الوليد بن المغيرة المخزوميّ حينما سمع أيّاً من القرآن الكريم فروّعت فؤاده وهزّت أعماقه وجعلته مبهوراً مسحوراً فشهد شهادة صادقة بعلوّ خطاب القرآن الكريم وسموّ نظمه العجيب ومزيّة تأليفه العظيم قال: ((والله ، لقد سمعتُ من محمّد كلاماً ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ وإنّ له لحلاوة ، وإنّ عليه لطلّوة ، وإنّ أعلاه لمثمر ، وإنّ أسفله لمغدق)) (٨).

إنه إقرار واعتراف واضحان بأن القرآن الكريم فوق كلامهم وفوق ما يقولون وأنه حاز الرفعة والمراقبة بياناً وبلاغةً وجمالاً وبهاءً وروعةً وإعجازاً لا يدانيه ولا يوازيه ولا يجاريه ولا يزاومه خطاب آخر مهما علا وسما .

وتنبّه الخطّابيّ (ت ٣٣٨هـ) إلى تأثير القرآن في النفوس وصنّيعه بالقلوب في خاتمة رسالته (البيان في إعجاز القرآن) قال : ((قلتُ في إعجاز القرآن وجهٌ آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشّاذ من آحادهم وذلك صنّيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لاتسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذّة والحلاوة في حالٍ ومن الرّوعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه تستبشربه النفوس وتنشرح له الصّدور ، حتّى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق وتغشّأها الخوف والفرق تقشّع منه الجلود وتزعج له القلوب يحول بين النّفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدوّ للرسول صلّى الله عليه وآله من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت مسامعهم : أن يتحولوا عن رأيهم الأوّل ، وأن يركنوا إلى مسالمتهم ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانًا)) (٩).

وأشار بدر الدين الزّركشيّ (ت ٧٩٤هـ) إلى من آمن وصدّق برسالة محمد صلّى الله عليه وآله من فوره وقد سمع آيا من القرآن الكريم من ذلك أنّ الخليفة عمر بن الخطاب يريد رسول الله صلّى الله عليه وآله ويعمد لقتله فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه ، فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن . (١٠)

وبنا حاجة أن نذكر نصوصًا بيانيّة عظيمة المضمون عالية البيان في تبيان سلطة القرآن البيانية وقمة بلاغته العليّة ؛ لتكون في قابل البيان فاتحة لتبيان بلاغة القرآن المعجزة ، فقد أبان القرآن الكريم عن نفسه بأنّه مبين وذكري وموعظة وشفاء وتفصيل وتنزيل وعربيّ وتذكرة وحقّ ومهدي وغير ذي عوج وقيم وآيات بيّنات وفرقان وصحف مطهّرة وأحسن الحديث وبصائر ومبارك ومهيمن وبرهان وروح وغيرها . (١١) ، قال تعالى : ((يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا)) (النساء ١٧٤) ن وقال تعالى : ((ما كان حديدًا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)) (النحل ٦٤) ، وقال تعالى : ((لسان الذي يلحدون إليه أعجبّي وهذا لسان عربيّ مبين)) (النحل ١٠٣) وقال تعالى : ((كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)) (هود ١) ، وقوله تعالى : ((الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا)) (الكهف ٢-١).

وقال النبيّ محمد صلّى الله عليه وآله مصوّرًا بيان القرآن وسحره حتّى جعله منبع البيان والسحر قال : ((إنّ من البيان لسحرا)) (١٢).

وقال الإمام عليّ (عليه السلام) : ((كتاب الله بين أظهركم ، ناطق لا يعي لسأته ، وبيت لا تهدم أركانه ، وعزّ لا تهزم أعوانه)) (١٣). وقالت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) : ((ونحن بقيّة استخلفنا عليكم ومعنا كتاب الله بينة بصائره وآي فينا منكشفة سرائره وبرهان منجلية ظواهره مديم للبريّة استماعه قائد إلى الرضوان أتباعه مؤدّ إلى النجاة استماعه فيه بيان حجج الله المنوّرة وعزائمه المفسّرة ومحارمه المحدّرة وبيناته الجالية وجمله الكافية وفضائله المنذوبة ورخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة)) (١٤). وقال الإمام الحسن (عليه السلام) : ((وهو الذّكر الحكيم والتّور المبين والصرط المستقيم فيه خير ما كان قبلكم ونبا

مابعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل وهو الذي سمعته الجن فلم تناها أن قالوا : ((إِنَّا سَمِعْنَا قِرَاءًا عَجْبًا يَهْدِي إِلَى الرِّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ))(الجن ٢-١)، لا يخلق على طول الردِّ ولا تنقضي عِبره ولا تفتى عجائبه)) (١٥). وقال الإمام الحسين (عليه السلام) : ((كتاب الله عزَّ وجلَّ على أربعة أشياء : على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخوارج واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء)) (١٦). وقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام في صحيفته المباركة السجادية من دعاء له في ختم القرآن : ((اللهم إنك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلته نورا وجعلته مهيمنا على كل كتاب أنزلته وجعلته نورا نهتدي من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه... ونورا هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه وعلم نجاته لا يضل من أم قصد سنته ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته)) (١٧). وقال الإمام الباقر عليه السلام : ((إنَّ القرآن حيّ لا يموت والآية حيّة لا تموت فلو كانت الآية إذ نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضين)) (١٨). وقال الإمام الصادق عليه السلام : ((إنَّ القرآن حيّ لا يموت والآية حيّة لا تموت وإنه يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا)) (١٩). ونختم أقوال أئمة أهل البيت عليهم السلام بقول الإمام علي الهادي عليه السلام حينما سأله ابن السكيت التّحويّ (ت ٢٦٦ هـ) : ما بال القرآن لا يزداد على النّشر والدرس إلا غضاضة ؟ قال : ((لأنَّ الله لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس ، فهو في كلّ زمان جديد وعند كلّ قوم غضّ إلى يوم القيامة)) (٢٠).

والحمد لله رب العالمين